القرابة ومسألة "شعب الله المختار"

من الحقائق المهمّة الواردة في رسالة الإنجيل أن يرسل الله كلمته الخالدة لكي تتجسّد في إنسان. وقد وُلد ذلك الإنسان قبل حوالي 2000 سنة في بلدة صغيرة في فلسطين تسمّى النّاصرة. وكان من الممكن أن يُرسل اللهُ كلمتَه إلى مناطقَ وحضاراتٍ كثيرةً عبر العالم، ولكنّه اختار هذه المنطقة دون سواها.

فمن بين مئات الثقافات المختلفة والمهمّة على كوكبنا الأرضي وقع اختيارُ الله على الثقافة الشرقية، وتحديدا الشّرق الأوسط. وتُعتبر القرابة بهذه الثقافة مسألة قائمة على أساسِ تسلسلٍ أبويّ يعود إلى الزمن البعيد. فبعض الثقافات تنظر إلى مسألة الأصل كتسلسلٍ سُلاليّ يشمل الآباء والأمّهات على حدّ سواء، بينما تأخذ ثقافات أخرى بعين الاعتبار الأمّهات فقط. وقد ترعرع السيد المسيح (سلامُهُ علينا) في كنف الثقافة الفلسطينيّة القديمة التي تحدّد مسألة الأصل على أساس الامتداد السّلالي المحدَّد بشجرة الآباء. والحضاراتُ الّتي تفعل ذلك تعطي أهمية بالغة للنّسب الذّكوري، إذ الذّكور فقط هم من يُورّثون جوهرَ وجودِهم وطبائعِهم لأبنائهم، حيث من اليسير على أبناء هذه الثقافة ذكرُ أسماء أجدادِ أجدادِهم، ولكنْ من غير الممكن فعلُ الأمر ذاته بخصوص جدّات جدّاتهم.

إنّ مفهوم القرابة أو صلة الدّم أساسيٌّ بالنّسبة إلى الثقافات والشعوب التي تشترك في مجموعة من المعتقدات والعادات والتقاليد. فهناك معتقداتٌ وتقاليد نتقاسمُها مع كل العالم، وعلى سبيل المثال تقرّ كلّ الشعوب بأهميّة مؤسّسة الزّواج بشكل أو بآخر. ولكنّ بعضَ المعتقدات والتقاليد لا يتقاسمها جميع الشعوب. ففي الوطن العربي، مثلا، تُستعمل الحنّاء كنَوْعٍ من الزّينة لزَخرفة بعض أجزاء الجسد في مناسبات الزفاف، في حين لا تحظى الحناء بأيّ اهتمام يذكر في أمكنة أخرى من العالم لأنّها ليست من عادات تلك الشعوب وتقاليدها.

وتشكّل دراسةُ أواصر القرابة وكيفيّة تسلسلها مجالا واسعا للدّرس في ميدان الانتروبولوجيا التي تعتبر أنّ الشّعوب والثقافات المختلفة تنظّمها أنساقُ قرابةٍ تختلف من ثقافة إلى أخرى، بحيث يختلف نظام علاقات القربى من ثقافة إلى ثقافة بطريقة تُعطي معانٍ مغايرة للأدوار القائمة داخل كلِّ مجموعة، وكذا كل النواحي التي تتعلّق بالحياة العائليّة. فالدّراساتُ الّتي تهتمّ بعُرى القرابة تطرح أسئلة من قبيل: مَنْ هم الأشخاص الّذين يُشكّلون "العائلة" في هذا الشعب؟ كيف تنتقل الممتلكات والهويّات وراثيّا من أسرة إلى أخرى؟ كيف يصبح المرء عضوا في عائلةٍ ما وكيف يتمّ توارُثُ هذه العضوية؟ أين يعيش الأزواج حديثو العهد بالزّواج حسب تقاليد هذا الشعب أو العشيرة؟

إنّ الشعوب والحضارات التي تنتقل فيها الهويّة عن طريق الآباء فقط تختلف عن مثيلاتها في بقاع أخرى من العالم. ففي بعض الثقافات يمكن للطفل أن يرث هويّتَه عن أبويْه معا أو قد يرثها عن طريق أمّه فقط.

هناك بعض أنظمة الوراثة التي تحتوي على عادات معقّدة جدّا يرث من خلالها الطّفل جوانب مختلفة من هويّته من خلال أبيه وأمّه، وقد يرث بعضَها من العمّات والخالات و/أو الأعمام والأخوال. وفي الشرق الأوسط، قد يشعر المرء بارتباط قوي مع أمّه، إلاّ أنّ هويّة الأمّ، الطائفية والوطنيّة على سبيل المثال، لا يمكن أن تنتقل إلى الطّفل. وبسبب ضرورة انتقال الهويّة من الأب إلى الابن، لا يستطيع شخصٌ ما الانتماء إلى مجموعةٍ تتقاسم نفسَ الهويّة إلاّ إذا كان الأب جزءا منها. فكيف يتحقّق مثلا الانتماءُ إلى قبيلة معيّنة بالنسبة إلى أغلب النّاس؟ الجواب: عن طريق الانحدار من أبٍ يكون عضوا في تلك القبيلة. وكيف ينتمي شخصٌ ما إلى طبقة الأشراف؟ الجواب: من خلال الأب. وكيف ينتمي شخصٌ ما إلى طائفةٍ دينيّة؟ الجواب: من خلال الأب.

هكذا، تبدو الصّلات الأبويّة راسخة وصلبة. فقد كان الأشخاصُ الّذين عاشروا السيّد المسيح وسمعوا كلامه ينتمون إلى ثقافة أبويّة كالّتي نُصادفها اليوم في الشرق الأوسط، بحيث يمكن الحديث عن استمراريّةٍ دامت 2000 سنة، من زمن السيّد المسيح إلى الآن. ولكن رغم أنَّ المسيح عاش في مجتمع اتّسم بانتقال الهويّة عن طريق الأب فقط، فقد أبدى معارضته لبعض الجوانب السلبية في منظومة القرابة الأبوية التي ترعرع في أحضانها. لذلك، فإنّ فَهْمَنا للطّريقة التي قارب بها السيّد المسيح نظام القرابة الذي عاش فيه يمكن أنْ يساعدنا على فهم الدّعوة التي وجّهها لأتباعه ماضيا وحاضرا. فحتّى قبل أن يستهلَّ السيّد المسيح رسالته سبَقه النبيُّ يحيى بن زكريّا الّذي هو ابنُ خالته، فدخل في مواجهةٍ مع أولئك الّذين يعتبرون شجرة النّسب أهمَّ عامِلٍ في تحديد الحياة الرّوحية للفرد. وتمَثّل دورُ النّبيّ يحيى في الإخبار بقدوم السيّد المسيح والتّعريف بالنّظام الجديد الذي أتى به. فقد كان يُخاطب الوافدين عليه كي يتطهّروا بالماء على يديْه قائلا: ﴿توبوا إلى اللهِ، ولْتَكُن توبَتُكُم بَيّنةً في أعمالِكُم الصّالحةِ، ولا تُسِرّوا في أنفُسِكُم أنّكُم في مَأمَنٍ مِن غَضَبِ اللهِ، كَما في قولِكُم: "نَحنُ المُنحَدِرونَ مِن سُلالةِ النَّبيِّ إبراهيمَ، شَعبُ اللهِ المُختار". إنّ هذا لن يُفيدَكُم في شَيءٍ، فاللهُ قادِرٌ على أن يَستَبدِلَ بكُم حِجارةً يَجعَلُها أبناءً لإبراهيمَ! ألا فاعلَموا أنّ غَضَبَ اللهِ إنّما يَنزِلُ كالفأسِ تَقتَلِع الأشجارَ مِن جُذُورِها، ألاَ وإنّكُم هذِهِ الأشجارُ غَيرُ المُثمِرةُ! وغَيرُكُم مِمّن كانوا أمثَالَكُم كتِلكَ الأشجارِ الّتي سيَقتَلِعُها اللهُ ويُلقي بها في نارِ جَهَنَّمَ﴾ (لوقا 3:8-9). كان لهؤلاء الناس لا محالة فكرة عن شجرة النسب كما هو الحال اليوم.

لقد كانت تلك الكلمات التي نطق بها النبيّ يحيى بن زكريا تحدّيا قويّا جدّا لأولئك المُتفاخرين بانحدارهم من سلالة النبيّ إبراهيم عليه السلام، إذ أخبرهم بكلّ شجاعة أنّ "ثمارهم"، أي أعمالهم الصّالحة الّتي هي دليل على توبتهم، أهمّ بكثير من مسألة النّسب الشّريف. والمغزى الذي يمكن استخلاصه من ذلك يتمثّل في أنّ السيّد المسيح (لأنه) يمثّل مرحلة جديدة تعتبر فيها التوبة وطاعة الله أهمَّ بكثير من الانتماء البيولوجي، ومن الهويّة القبليّة أو العرقيّة أو الدينيّة فيما يخصّ تحديد أحقيّة الانتماء لأمّة الله.

لقد جاء السيّد المسيح حقّا بنظام وراثي جديد في إطار أمّة الله الجديدة، بحيث لا يتحدّد الانتماء إلى أهل الله أو أمّته عن طريق شجرة النّسب، وإنّما من خلال الحرص على القيام بما يرضي الله. فمن خلال الحرص على ذلك يتمكّن الفرد من الدّخول إلى مملكة الله الأبديّة الّتي وعد بها أنبياءه الأوّلين. لكن كيف يمكن للمرء أن يصبح جزءا من أمّة الله المُنضوية تحت حكمه؟ لقد سبق للسيّد المسيح أن أجاب على ذلك السؤال عندما سأله أحد قادة رجال الدّين اليهود المسألة ذاتها، حيث قال: ﴿على أرواحِكُم أن تَتَجَدّدَ﴾ (يوحنا 7:3). فكما أنّ الإنسانيّة تتكوّن من رجال ونساء وُلدوا في إطارٍ عائليٍّ معيّن، كذلك تتكوّن الأمّة الجديدة ممّن وهبهم الله الحياة الجديدة. وعلى عكس ميلادهم الأوّل الذي لم تكن لهم يد في اختياره، فقد أصبح الآن بإمكانهم أنْ يختاروا ولادتَهم الجديدة بالدّخول في هذه الأمّة. وكما أنّ النّاس يرثون خصائصَ ومميّزاتٍ جسديّةً عن آبائهم، فقد أصبح المؤمنون بالسيّد المسيح مُمَيَّزين من النّاحية الرّوحية بانتمائهم إلى الله الّذي أتاح لهم من خلال إيمانهم بالسيّد المسيح التّعبيرَ عن الكثير من الصفات القائمة بجوهره وعميق حقيقته.

لقد كان السيّد المسيح يعرف أنّ أتباعه سيواجهون عدّة مشاكل بسبب التزاماتهم الأسريّة الماديّة الجسديّة مقابل التزامهم تجاه أسرتهم الرّوحية الجديدة. لذلك، بيّن (سلامُهُ علينا) بوضوح أنّ الّذي يختار أن يكون معه قد يدخل في صراع مع بعض أفراد أسرته نتيجة لقراره ذلك. ففي إحدى المرّات، بينما هو يلقي موعظته أمام جمع من الناس جاءه بعض أفراد أسرته ليأخذوه إلى البيت، فأوضح لهم أنّ ولاءه لأسرته البيولوجية يأتي في المرتبة الثانية بعد ولائه لأمّة الله الجديدة. فقد كان المسيح (سلامُهُ علينا) يريد لأتباعه أن يولوا المقام الأوّل لمسألة انتمائهم إلى أمّة الله. إذ قال: "لاَ تَظُنُّوا أنّي جِئْتُ لأقيمَ السَّلامَ بيْنَ المُؤمنين وغيْرِ المُؤمِنِينَ فِي الأرْضِ على حِسَابِ الحَقّ. بلْ جئتُ بِرِسَالَةِ الحَقّ الّتِي هِيَ كَحَدِّ السَّيْفِ لِأفْصِلَ بَيْنَهُمْ! وَهَكَذَا سَتُثِيرُ دَعْوَتِي الخِلاَفَ بَيْنَ الابْنِ وَأبِيهِ، والبِنْتِ وأمّهَا، وزَوْجَةِ الابْنِ وحَمَاتِهَا، ويُصْبِحُ أعْدَاءُ الإنْسَانِ مِنْ أهْلِ بَيْتِهِ. وأقولُ لَكُمْ مَنْ أحَبَّ أبَوَيْهِ أوْ أبْناءَه أكثرَ منّي، فلا يَسْتحِقّنِي." (متّى 10:34-37)

يشكّل تراثُ السيّد المسيح وهويّتُه إذن موضوعا استأثر اهتمام الناس كثيرا. فنحن نُشير عادة إلى السيّد المسيح باسم ابن مريم وذلك اعتبارا لما ورد في الكتب المُقدّسة الّتي تَذكُر أنَّه عاش تحت كفالة يوسف الّذي لم يكن أباه. وقد طعن بعضُ اليهود بشكل سيّءٍ في نسبه وأُعتبروه ابنا غير شرعيّ. وذلك بسبب افتقاده لأبٍ بيولوجيّ، كما أنّهم لم يشعروا بالارتياح لعدم انحداره من أسرة ثرية أو شهيرة. إنّ اليهود الّذين انتقدوا المسيح كانوا يجهلون مقاصد الله. فقد جاء في الآية الأولى من سيرة السيّد المسيح التي سجّلها الحواري متّى أنّ السيد المسيح هو وارث عرش النبيّ داود. وهذا لقبٌ ملكيّ يفيد أنّ المسيح من ذريّة المُلوك أبناء يعقوب، كما أنّه من "ذريّة النبيّ إبراهيم" وهي العلامة الأكثر تحديدا لهويّة بني

يعقوب. ولكن، كيف يمكن للسيّد المسيح أن يكون سليلَ النبيّ إبراهيم والنبيّ داود رغم أنّه لم يكن له أب بشريّ؟ لقد منح الله يوسف بصفته زوج مريم أمِّ المسيح الحقَّ في أن يصبح وليَّ أمر السيِّد المسيح بما في ذلك تسميته وتربيته. وشجرة النّسب الّتي رسم معالمَها متّى في سيرة حياة المسيح وسلالته هي شجرة يوسف، والهدف منها إبراز حقّ السيّد المسيح في المطالبة بعرش النبيّ داود بصفته المسيح المنتظر. إلاّ أنّها ليست الشجرة الحقيقيّة لسلالة السيّد المسيح. وهذا يُبيّن أنّ الهويّة والانتماء الرّوحي للسيّد المسيح أهمُّ بكثير من أيّ انتماء عائلي.

فقبل ميلاد المسيح بأجيال كثيرة تنبأ النبي داود بقدوم المسيح المنتظر حيث قال: ﴿أقسم الله ولا رادَّ لِقسَمِهِ: لقد جعلناكَ حبرًا إلى الأبد، على نظامِ المَلِكِ صادِقٍ﴾(كتاب الزبور، المزمور 4:110). وقد كان الملك صادق أحد عباد الله في عهد النبيّ إبراهيم ﷺ، وكان ينتمي لأمّة أخرى. ولم تدوَّنْ سلالتُه كما هو الحال بالنسبة لسلالة الأحبار من بني يعقوب. فأصبح بذلك يُمثّل الشّخص الّذي يستمدّ حقّه في أنْ يكون إماما عند الله من الله نفسه وليس من سلالته الأبويّة. وهذا ينطبق تماما على السيّد المسيح الذي يستمدّ حقّه وشرعيّته من الله، لا من انتمائه القبلي أو نسبه العائلي.

إنّ هويّة السيّد المسيح تأتي من صلاحه واستقامته وليس فقط من انتمائه لأيّة نسب. فمثلما دعا أتباعُه كي يكون ولاؤهم له ولمملكة الله فوق ولائهم للنّاس، أبان أيضا من خلال حياته، وولادته العجيبة، أنّ هويّتَه كمنقذ وملك مُستمدَّة من الله. ففي أمّة الله الجديدة بيّن السيد المسيح أنّ ولاءنا له أهمُّ من أيّ ولاء عِرقيّ. والّذين لبَّوْا نداءه كفُّوا عن النظر إلى النّاس من منظور الانتماء السُّلالي، إذ لم يعد هناك اعتبارٌ للفَرق بين اليهوديّ وغير اليهوديّ، والذّكر والأنثى، أو أيّ اعتبار لأواصر القرابة والنسب. لقد أصبحت أمَّة الله تضمُّ كلَّ النّاس الّذين لبَّوْا نداء المسيح للتّوبة والاستقامة من خلاله. فلا عجبَ أنْ يُسمِّيَ السيِّدُ المسيح هذا التحوُّلَ ولادةً جديدةً!